المَسْرَح

العدد (49) - أكتوبر 2023

رواية

الشيخ الأبيض

لسلطان القاسمي

في عرض عماني

المسرح الإماراتي

ذاكرة التراث

السمعي والبصري

في الذكرى المئوية لرحيله

سيد درويش.. هل أسهم يوسف وهبي في شهرته؟

في مناسبة مرور مائة عام على رحيل الفنان سيد درويش (1892 - 1923) الذي كتبت عنه منذ عشرين سنة، متناولاً فصلاً عن تاريخ فرقته المسرحيَّة، في كتابي «مسيرة المسرح في مصر.. فرق المسرح الغنائي»، أود أن أستعيد مع القارئ المواقف التي تشكلت في المشهد الفني، بين الفنانين والأدباء والصحافيين إثر موته منذ قرن من الزمان.

سيد علي إسماعيل
أستاذ جامعي ومؤرخ مسرحي من مصر

مات سيد درويش يوم 15 سبتمبر 1923، وتولى صديقه «محمود طاهر لاشين» - الأديب والقاص الشهير - إخبار بعض الأصدقاء بخبر وفاته، وكتب ذلك في جريدة «السياسة» يوم 22 أكتوبر – أي بعد أسبوع واحد فقط من الوفاة – قائلاً: «نعيت الشيخ سيد إلى الكثيرين إثر وفاته، فكان يأخذني العجب، بل يتملكني الغضب أحياناً حينما أرى صاحبي قد وقف أمامي هادئاً ساكناً كأنني لم أخبره بشيء! فإذا رآني جاداً أو غاضباً قال لي بدهشة: ومن هو الشيخ سيد هذا؟».

هذه هي حقيقة الفنان سيد درويش، لأن تاريخه الفني – الموسيقي والمسرحي – لم يتعد السنوات الخمس «1918 - 1923»! فهل هذا النشاط المحدود كماً وكيفاً وزمناً يجعل الناس يعرفونه حينها؟ أكيد الإجابة «لا»!

ولكن الواقع الآن غير ذلك؛ فالعالم كله يعرف سيد درويش ومكانته الموسيقيَّة والمسرحيَّة طوال مائة سنة. أي أن جهود خمس سنوات فقط، ظلت باقية ومستمرة ومؤثرة مائة سنة! فما هو السر في ذلك؟! السر يتمثل في مبلغ «خمسة جنيهات» لو دُفعت منذ

مائة سنة، ربما ضاع تاريخ سيد درويش، ولم نسمع عنه وعن جهوده الموسيقيَّة والمسرحيَّة؛ فما هي قصة هذه الجنيهات الخمسة؟

عندما مات سيد درويش سارعت الصحف والمجلات، مثل: السياسة، والنيل المصور، والسيف، والكشكول واللطائف المصورة، إلى نعيّه بعبارات وعناوين مستهلكة معروفة في هذه المناسبات، مثل: وفاة ملحن في طليعة الملحنين المصريين، ومات رجل والرجال قليلون، ووفاة رجل من أكبر رجال الموسيقى العربيَّة في الشرق، ومات عميد الموسيقى العربيَّة في الشرق ...الخ!

أما الموسيقي «كامل الخلعي» فنشر كلمة مسجوعة تأبيناً للفقيد قال فيها: هو علم المواكب، وكوكب الكواكب، ونبراس المهتدين، ومشكاة المتعلمين، ودوحة المسارح، وقبلة كل صادح، كان رحمه الله عصامياً، ونابغاً عبقرياً، فصيح اللسان، قوي الحجة والجنان، إن قال صال، وإن أجاب أصاب، وإن نادم أعجب، وإن غنى أطرب، حُسن الزمان في تأليف الألحان، يمزج الغريب بالمتداول القريب، إذ تراه يؤلف الجديد، من الغناء والنشيد، ما يصلح كالدواء، لمختلف الميول والأهواء ...الخ.

هذه الكلمات لم ترض محبي الفنان، ولا فائدة منها ليعرف الناس قيمة الفقيد، لذلك قرر محبوه إقامة حفل تأبين في «مسرح رمسيس» ليوسف وهبي، كونه أهم مسرح يلقى إقبالاً جماهيرياً وقتذاك، وأعلنت الصحف عن ذلك – ومنها المقطم والسياسة – قائلة تحت عنوان «حفلة تأبين الشيخ سيد درويش»: «يقيم نفر من أدباء العصر وممثليه ورجال الصحافة والمشتغلين بالموسيقى، حفلة تأبين للمرحوم سيد درويش الموسيقي المسرحي الكبير يوم الجمعة 12 أكتوبر الحالي من الساعة 6 - 8 مساءً في مسرح رمسيس».

وفي يوم الحفل ذهب الموسيقي «عباس رحمي» صديق الفقيد إلى مسرح رمسيس، ونقل لنا فقرات حفل التأبين قائلاً - في جريدة السياسة يوم 15 أكتوبر – «وصلتني دعوة لحضور حفلة تأبين الأستاذ الفنان المرحوم الشيخ سيد درويش بمسرح رمسيس، فلما ذهبت في الساعة المحددة لرفع الستار وجدت هرجاً أمام باب التياترو والمدعوون ساخطون ولجنة الاحتفال في اضطراب. وقفت مع الواقفين أستفسر ما الخبر حتى عثرت على أحد الأصدقاء، وقصّ عليّ مأساة! وهي أن يوسف بك وهبي صاحب المسرح أقفل بابه في وجه حضرات المدعوين، وهو لا يدري أنه أوصد باب المروءة والإنسانيَّة، ذلك أنه قبل الحفلة بيوم واحد طلب «خمسة جنيهات» أجراً على النور في الساعتين اللتين تعمل فيهما حفلة التأبين، واشترط أن يُعلن بأنه تبرع بمسرحه مجاناً! ولما كانت اللجنة ترى أنها تقوم بعمل أدبي محض وأنه حق على أرباب التمثيل أن يعاونوها في عملها أبت دفع المبلغ، وأصدرت بياناً قالت فيه: تُعلن لجنة الاحتفال بتأبين نابغة الموسيقى المرحوم الشيخ سيد درويش

يوسف وهبي

لحضرات جميع مدعويها أسفها الزائد لاضطرارها قهراً لإرجاء ميعاد الحفلة يوم الأربعاء القادم واستبدال مسرح رمسيس بمسرح حديقة الأزبكيَّة، حيث فوجئت اللجنة في آخر لحظة برفض يوسف بك وهبي تقديم مسرحه بعد سابق وعده، وذلك لأنه لم يتقاض أجراً معيناً، الأمر الذي عطّل الحفلة نحو ساعة تقريباً فاضطرت اللجنة للانسحاب احتجاجاً وحفظاً لكرامتها وكرامة المحتفل بتأبينه وحضرات المدعوين. وحيث قد تقدم على إثر ذلك حضرة الفاضل الأستاذ زكي أفندي عكاشة بالنيابة عن شركة ترقية التمثيل العربي بوضع مسرح حديقة الأزبكيَّة تحت تصرف اللجنة في عصر الأربعاء القادم الساعة الخامسة».

هذا الإعلان يعني أن أمام اللجنة أربعة أيام فقط لإقامة الحفلة، ومن المؤكد أنها ستكون حفلة غير لائقة بالفقيد بعد فشل الحفلة الأولى! ومن هنا كان التحدي!! ففرقة عكاشة تريد إثبات مكانتها أمام فرقة رمسيس وأنها الأولى بتأبين الفقيد الذي منعه يوسف وهبي من أجل «خمسة جنيهات»، هذا بالإضافة إلى تحدي محبي الفقيد لأنفسهم وللآخرين من أجل ترسيخ تاريخ الفقيد وقيمته الفنيَّة في عقول الشباب والأجيال القادمة.

وجاء موعد الحفلة، ونقلت لنا تفاصيلها أغلب الصحف، التي أجمعت على أن القائمين بها كانوا من الأدباء والشبان الذين في أيديهم مستقبل مصر الأدبي والفني، وكلهم ممن يبحث ويسعى لرفع لواء الأدب والفن. وكان تدفق الناس على المسرح كبيراً حتى امتلأ بهم المكان وغصت القاعة على سعتها وامتلأت المماشي ووقف الكثيرون على الأقدام في الردهة المؤدية إلى المسرح، فالكل جاء ليشترك في تأبين المرحوم الشيخ سيد درويش وجاء ليسمع

سيد درويش

الحادث الكبير في عالم التمثيل والموسيقى
الاوبريت العربي
فيروز شاه
الشيخ سيد درويش

رواية
العشرة الطيبة
أوبرا بوف ذات أربعة فصول وعشرة مناظر
كتبها المرحوم محمد بك تيمور
وضع أزجالها بديع الشرق خيري
لحنها الشيخ سيد درويش
(مثلتها لأول مرة فرقة الكازينو دي باريس بمصر سنة ١٩٢٠)
تحت إشراف الاستاذ عزيز عيد مساء الخميس ١١ مارس سنة ١٩٢٠

أبحاثاً حقيقيَّة عنه لا مرثيات، ولم يخب رجاء الجمهور في ذلك من أول كلمة إلى آخرها، حتى كلمة الافتتاح التي ألقاها محمود طاهر لاشين. وكان من الطبيعي أن يبتدئ الخطباء بذكر شيء عن نشأة الشيخ سيد درويش الأولى، وهي نشأة يجهلها حتى الكثير من المعجبين بألحانه والمطلعين على أعماله، وقد قام بهذا الواجب حضرة الأديب «عباس سعيد».

أما تاريخ علاقة الشيخ سيد درويش بالمسارح وتلحينه الروايات وأعماله في ذلك، فهو تاريخ حديث يعرفه الكثيرون، ولكن القليل من الناس يستطيع تحليل جهود الشيخ سيد المسرحيَّة، وهذا ما قام به محمود مراد، الذي ألقى خطبة ضافية مستعيناً فيها بألحان سيد درويش، وكانت تُنشد أحياناً وتُعزف أحياناً أخرى. وذكر مراد ما كان لسيد درويش من الميزة على أقرانه من الملحنين المصريين – في مجال تلحين المسرحيات - وهي أن الشيخ سيد كان يعبر عن العواطف المختلفة بموسيقى ملائمة لها مما لا يوجد منه كثير ولا قليل في الموسيقى الشرقيَّة.

وقد يعزى القسم الأكبر من ذلك إلى عجز الملحنين ويعزى قسم منه إلى طريقة التلحين نفسها، ولكن سيد درويش أبدى فناً آخر في ألحانه، وكان يعبر عن كل موقف بما يليق به من الموسيقى، وذلك ما ميزه عن سائر الملحنين الشرقيين في هذا البلد.

وكانت خطبة حسين فوزي مبحثاً جليلاً ممتعاً، فهي تدل على أماني المحبين للموسيقى والعاملين على نهضتها، حيث تحدث الخطيب عن مركز الشيخ سيد قائلاً: نحن أيها السادة في فترة الانتقال وإنّا لنستبشر الخير لأننا قطعنا مرحلة كبرى في هذا الانتقال. لقد مات الشيخ سلامة حجازي الرجل الذي خلق وحده عصراً موسيقياً، فوقفنا نفكر ماذا يكون من أمر حاضرنا الموسيقي ومستقبلنا؟ وقامت قومة آراء الإصلاح الموسيقي، فنادى فريق بأن نعود إلى الماضي لنعيد إلى «التخت» بهجته كما كان أيام عبده وألمظ. ونادى فريق آخر قائلاً: هذه أوروبا قد علمت أجيالاً على تقدم الموسيقى فلنأخذ بقواعدها لنطبقها على نغماتنا الشرقيَّة كما فعلت شعوب أوروبا ذات الأصل الشرقي، كالمجريين والروسيين، وكسبت بذلك موسيقاها شهرة في العالم القديم والعالم الجديد.

ويرى فائق رياض أنها ليست نهضة ولا فناً ولا يمكن تحليلها تحليلاً وافياً الآن، فهي على حد قوله: خفيَّة وملتبسة غامضة، ومن جهة أخرى قلقة مضطربة لأنها ما تزال أوليَّة وتكون لها صفة خاصة. قد يكون في نفس الحركة الأوليَّة شيء من الفن المصري الأصيل، وقد لا يكون فيها شيء. لا أظن أحداً يستطيع الجزم الآن وإنما كل ما نستطيع أن نقوله هو إن أمثال هذه الحركات الأوليَّة جائز أن تتمخض في المستقبل عن شيء أصلي. وعلى اعتبار أن أمثال هذه الحركات يبتعثها في الغالب رجل واحد من نفس العصر، فإن سيد درويش كان روح الحركة الموسيقيَّة الجديدة التي أحدثكم عنها الآن.

وتكلم بعده إبراهيم حداد عن تكوين رجل الفن، قائلاً: إن الشيخ سيد درويش يمثل في موسيقاه الروح المحليَّة، ونحن نعلم أن جميع الموسيقيين في العالم يمثلون الروح المحليَّة قبل كل شيء.. ففن الموسيقى الألمانيَّة وفن الموسيقى الفرنسيَّة والموسيقى الروسيَّة، كل له مميزات خاصة يتميز بها عن الأخرى، وإن كان أهل بلد من هذه البلاد يعجبون بأهل البلد الآخر فذلك عائد إلى أسلوب التلحين الذي جعل الموسيقى في بلاد أوروبا لغة عامة يفهم معناها أهل سائر بلادها. واختتمت الحفلة بكلمة للأديب «أحمد حلمي علام» كانت دمعة على المرحوم الشيخ سيد درويش.

ومن يقرأ تفاصيل هذه الحفلة في جميع الصحف وقتذاك، سيلاحظ أن المعاني والمضامين والمعلومات التي جاءت في خطب ومقالات وبحوث المتحدثين، هي نفسها «كل» المعاني والمضامين والمعلومات التي نتحدث بها طوال مائة سنة عن الشيخ سيد درويش وقيمته المسرحيَّة والموسيقيَّة! لأن ما قيل في هذه الحفلة – داخل مسرح حديقة الأزبكيَّة - تهافتت عليه أغلب الصحف، ونشرت الأوراق والخطب والبحوث طوال سنة كاملة حتى جاء موعد الذكرى الأولى لسيد درويش عام 1924.. وكم كانت المفاجأة أن ما قيل في حفلة التأبين الأولى اعتمدت عليه حفلة الذكرى الأولى، وظل ما قيل في حفلة التأبين عام 1923 هو المصدر الأول والأهم لكل ما نعرفه عن الشيخ سيد درويش حتى الآن منذ مائة سنة! والفضل الأول والأخير في ذلك يعود إلى القدر الذي جعل يوسف وهبي يمنع إقامة حفلة تأبين سيد درويش في مسرح رمسيس عام 1923، لأنه لم يقبض ثمنها «خمسة جنيهات»!